تاريخ استقبال المقال:26 /01 /2016 تاريخ قبول نشر المقال: 2016/02/08 تاريخ نشر المقال:2016/06/01

رعاية المواهب والمبدعين في ضوء السنة النبوية

د. يوسف عبد اللاوي
جامعة الشهيد حمة لخضر بالوادي

ملخص

إن الإبداع والابتكار واجب يفرضه الدّين وضرورة يُحتّمها الواقع، فإذا كان القرآن الكريم تناول هذا الموضوع في إيحاءات موجزة، فإن النبي ε قد جسّد ذلك قولا وعملا، وترك ثروة هائلة من النصوص والتوجيهات النبوية التي تدعو في مجملها إلى ضرورة استخدام العقل في الابتكار النافع والإبداع الجميل، واختراع ما تجود به القرائح المبدعة من صور العمران والإصلاح والتجديد في العلم والعمل والفن

في هذا البحث تسليط الضوء على عدد من النصوص والتوجيهات النبوية التي تدعو إلى الإبداع وتشجّع على التميّز والتفوّق، وتُشيد بالمبدعين وأصحاب المواهب، وتستثمر إنتاجهم الأدبي والفكري والمادي فيما يدفع بالأمة نحو المعالي.

Nurturing talent and creators in the light of the Sunnah

Abstract :

Both , The creativity and innovation is duty imposed by religion , also It is a need refer to reality , if the Quran addresses this issue in a brief, but the Prophet, peace be upon him implemented the whole of it , then we have found wide range texts and guidelines of the Prophet Muhammad , which calls in general for using reason in innovation and the useful and the beautiful creativity, for instance: Photos of construction , reform , innovation in science and work of art. In the research shedding light on a number of prophetic texts and guidelines that call for creativity and encourage people to the excellence and being talent, also it is investing literary, intellectual and material production in order to push the nation toward Excellencies

مقدمة

إنّ دنيا الناس اليوم لا تعترف إلاّ بالأقوياء علما وعملا، وفكرا وسلوكا، وإبداعا وإتقانا، ممّن لا يعرف العجز والكسل إليهم سبيلا. ولا يرضون العيش على هامش الحياة بل يقتحمون صلبها ويركبون متنها بكل إيجابية ودافعهم في ذلك حديث رسول الله ε: (المؤمن القويّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز)[1].

وقمّة العجز في عدم الثقة في النفس وإقناع الذات بأنّه ليس بالإمكان أبدع مما كان، هذه المقولة اليائسةُ البائسة التي تحوّلت إلى شعار يعبّر عن العجز والعطالة والخمول.

وفي ذلك يقول الدكتور عمر عبيد حسنة: ("ليس بالإمكان أفضل مما كان" شعار العاجزين الذي يجعل واقعهم مسترخيا، ومذهبهم مرجئا في الوقت الذي نرى فيه شعار العالم الدائم أنه بالإمكان باستمرار أفضل مما كان، وعندهم أنّه لابد من مقابلة الدرس والاختبار وإعادة قراءة الماضي لكشف جوانب القصور، وأسباب التقصير،ة واستدراك ذلك بصناعة واقع أفضل واستشراف مستقبل أكثر سدادا وصوابا. وأعتقد أن هذا الشعار الذي انقلب إلى مُسلّمة في حياتنا، من الأمور التي ساهمت في عطالة الأمة وانطفاء فاعليتها وعجزها من الإفادة من ماضيها لحاضرها، ومن حاضرها لمستقبلها)[2].

ويقول الدكتور عبد الكريم بكار:(إن أمة الإسلام تعاني من مشكلات كثيرة، ولها أيضا طموحات وآمال عريضة ومن العسير تحقيق هذه والخلاص من تلك من غير الإبداع، والتوظيف المكثف للطاقات والإمكانات العقلية التي نملكها، حين نحترم الإبداع ونحفز عليه، ونوجد الأطر التي تخدمه وترعاه، يظهر المبدعون وتسري في الأمة حيوية جديدة) [3].

ولقد تفطن النبي صلى الله عليه وسلم لأهمية رعاية المواهب وتشجيع الطاقات الإبداعية في صناعة النهضة الشاملة ، فعمل على إيجاد بيئة تشجع على التفكير الإيجابي والعمل والإنتاج الأدبي والمادي .

والسنة النبوية والسيرة العملية تزخر بنصوص وتوجيهات ووقائع تؤكد أن أمة اقرأ حلقت عاليا في سماء النهوض والتطور بفضل علمائها ومواهبها وطاقتها الإبداعية في شتى المجالات .

في هذا العرض نقدم صورا ونماذج على رعاية واهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالمواهب الإبداعية، ونعالج الموضوع في المحاور الآتية:

المحور الأول: من صور العناية بقيم الإبداع في السنة النبوية .

المحور الثاني: توجيهات نبوية في الإعمار وصناعة الحياة .

المحور الثالث: نماذج عملية في الاحتفاء بالإبداع والمبدعين واستثمار طاقاتهم

المحور الأول: من صور العناية بقيم الإبداع في السنة النبوية .

من أهم القيم التي تساعد على الإبداع ما يأتي:

1. **تنمية الروح المعنوية:** فالعناية بالدافع الروحي الذي يزرع الثقة في النفس، ويبعث على الحركة والنشاط، ويدفع إلى السبق والإبداع، من أهم القيم التي ركز عليها النبي ρ لضمان توفير البيئة المساعدة على الإنتاج وتنمية مواهب الإبداع والابتكار .

يقول رسول الله ε: (المؤمن القويّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز) [4].

فالحديث يشجع على امتلاك صفة القوة، ولا تختصر القوة في البنية الجسدية، أو المهارات القتالية، وإنما قوة التفكير والمباردة والإبداع من أهم تجلياتها ومظاهرها .

وفي الحديث دعوة صريحة إلى التوكل على الله أولا وأخيرا والاستعانة به، فبه نستمد القوة والتوفيق، ومنه نحظى بالقبول والأجر .

لكن هذا التوكل ينبغي أن يدفعنا إلى العمل واتخاذ الأسباب، وعدم الاستسلام إلى آفة التواكل والعجز، ونبينا ε يوجهانا بالقول: (اعقلها والتوكل)[5] .

وفضل السبق بالعمل النافع والابتكار المفيد مما دعا إليه رسول الله ε حينما قال: (من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)[6].

2. استثمار الوقت:

قيمة الزمن في الإسلام رفيعة، إلى الحد الذي أقسم به ربنا عز وجل أو بعلامة من علاماته في عدد من فواتح السور والآيات، أقسم بالفجر والضحى والعصر والليل والشفق، والشمس، والقمر .. الخ وهي رسالة واضحة من رب العزة على ضرورة الاهتمام بالوقت وحسن استثماره .

وهذا ما حدا بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى أن يخصص عددا من توجيهاته لضرورة الاهتمام بالوقت، وحسن استثماره فيما ينفع .

فقد نبهنا ابتداء إلى خطورة هدر قيمة الوقت وأننا سنسأل عن ذلك يوم القيامة، حيث قال ρ :(لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به) [7].

وحديث كهذا سيحفزنا بلا شك إلى ضرورة اغتنام الوقت واستثماره في النافع المفيد، وهو ما دعانا إليه النبي ρ حين قال: (اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وشبابك قبل هرمك، وقوتك قبل ضعفك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك) [8].

فالوقت هو الحياة، وضياع ساعة منه فيما لا ينفع تضييع للعمر . وفي هذا يقول الحسن البصري: "يا ابن ادم إنما أنت أيام مجموعة، كلما ذهب يوم ذهب بعضك"[9].

"ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي منادي: يا ابن آدم أنا يوم جديد وعلى عملك شهيد فاغتنم مني فإني إذا مضيت لا أعود إلى يوم القيامة" [10].

إن الوعي بقيمة الوقت من أهم المحفزات على الإبداع وتنمية المهارات من أجل الإنتاج والمساهمة في دفع عجلة التنمية بكل صورها الحضارية الناصعة .

ومن مظاهر هذا الوعي المبادرة إلى العمل والإنتاج قبل حصول الآفات والأسقام والعوائق المعطلة لحركة التنمية .

وفي هذا يقول ρ : "بادروا بالأعمال سبعا، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال، فشر غائب منتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر"[11].

2. إتقان العمل

وقيمة العمل في الإسلام لا تكمن في مجرد أنّه عمل وفقط، بل بما يتلبّس به من خصائص الجودة والإتقان والإبداع، فبقدر ما يكون العمل بديعا بقدر ما ترتفع قيمته ويعظم نفعه ويمتد. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ε: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) [12]. وفي رواية "أن يُحكمه"[13].

وفي لفظ آخر عن كليب الجرمي:(إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يُحسن) [14].

وعن شداد بن أوس قال: (ثنتان حفظتهما من رسول الله ε قال:(إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِبح، وليُحدّ أحدكم شفرته وليُرح ذبيحته)[15].

وقد اعتبر الإمام النووي هذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد الإسلام[16] وهو الأمر الذي ذهب إليه جميع شراح الحديث، وذلك لما يدعوا إليه من تحسين الأعمال وإجادتها.

وعلّق فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي على هذا الموضوع بالقول: (ومن القيّم المهمة في مجال الإنتاج بعد قيمة العمل، إحسان العمل وإتقانه وليس المطلوب في الإسلام مجرد أن يعمل بل أن يعمل عملا حسنا وبعبارة أخرى أن يحسن العمل و يؤديه بإحكام وإتقان، فهذا الإحسان في العمل ليس نافلة أو فضلا أو أمرا هامشيا في نظر الإسلام بل هو فريضة دينية مكتوبة على كل مسلم) [17].

ويقول في موضع آخر: (إنّ النبي ε حثّ على إتقان أي عمل يمارسه المسلم ولو كان قتل وُزغة، ففي الحديث:"من قتل وزغة في أول ضربة كُتب له مئة حسنة، ومن قتلها في الضربة الثانية فله كذا وكذا حسنة" [18]. أي أقل من الثانية ومعنى هذا أن الإتقان مطلوب في أي عمل ولو كان تافها في نظر الناس) [19].

بمثل هذه التوجيهات النبوية والتمسك بها تحوّلت أمّتنا في زمانها الأول إلى أمّة إنتاج وإبداع فاستحقت بكل جدارة واستحقاق أن تقود العالم لقرون طويلة.

يقول الأستاذ محمد قطب:(وقد ظلّت الأمة الإسلامية تحافظ على هذه التوجيهات بقدر محافظتها على الروح الإسلامية الحقيقية، فكانت من أعظم الأمم إنتاجا ومن أعظمها ثروة ومن أعظمها خبرة وإتقانا)[20].

ويقول الدكتور صبحي الصالح بعد أن سرد عددا من هذه التوجيهات النبوية التي تدعو إلى العمل والإنتاج :(ولقد كان لهذه التعاليم أبلغ الأثر في نفوس المسلمين، فأقبلوا على أنواع الصناعات يتقنونها ويحاولون التفوق فيها على غيرهم من الشعوب ولا سيما بعد أن استتبّ لهم الأمر ووجدوا – على أثر الفتوح– فرص العمل والتصنيع متاحة للجميع) [21].

المحور الثاني: توجيهات نبوية في الإعمار وصناعة الحياة

والعمل والإبداع لا يرتبط بمرحلة من مراحل العمر، وإنما هي عملية طويلة ومستمرة تمتد إلى آخر لحظة من لحظات الحياة .

وفي سنة رسول الله ε ما يؤكد هذا المعنى في أبلغ سورة وأدق تعبير وأروع تمثيل، فعن أنس بن مالك τ قال: قال رسول الله ε:(إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل) [22].

والغراس هنا ليس مقصودا لذاته وإنما يُؤشر إلى غيره من الأعمال النافعة الجليلة التي ينبغي أن تستمر مادامت الحياة.

يقول الدكتور عماد الدين خليل معلقا على الحديث (...فنعرف جيدا كيف أن الدور الحضاري للإنسان المسلم يقوم على العمل والإبداع المتواصلين منذ لحظة الوعي الأولى وحتى ساعة الحساب ونعلم تماما كيف أن الحياة الإسلامية إنما هي فعل إبداعي مستمر) [23].

ويقول الشيخ يوسف القرضاوي:(إنه رَمَز لمعنى كبير، أن العمل مطلوب لذاته وأن المسلم يتعبد لله بالعمل لعمارة الأرض، وأنه مستمر في عمله حتى تلفظ الحياة آخر أنفاسها) [24].

ولأنّ العمل لعمارة الأرض هو تجسيد لقوله تعالى:[هو أَنْشأكُم مِن الأرضِ واستعمَرَكُم فِيهَا][25]. أي أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن وحرث للأرض وغرس أشجار وحفر أنهار وغيرها[26].

جاءت توجيهات رسول الله ε لتدفع إلى جملة من الأعمال النافعة التي تجسّد حقيقة العمارة التي يمتدّ نفعها إلى الإنسان والحيوان، مع ينبغي أن يكون عليه هذا الإعمار من الجودة والإتقان والإبداع. ومن هذا القبيل جاءت الدعوة إلى إحياء الأرض الموات، فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ε قال:(من أعْمَر أرضا ليست لأحد، فهو أحق) قال عروة: قضى به عمر في خلافته[27].

وعن جابر بن عبد الله عن النبي ε:(من أحيا أرضا ميتة فهي له، وما أكلت العافية منه فهو له صدقة)[28].

وعنه أيضا عن النبي ε: (من أحيا أرضا ميتة فله فيها أجر، وما أكلت العافية فهو له صدقة) [29].

قال الإمام البغوي: (وإحياء الموات يكون بالعمارة، وذلك يختلف باختلاف مقصود المحُيي من الأرض، فإن أراد دارا فلا يملك حتى يبني حواليه ويسقّف، وإن أراد بستانا، فبأن يُحوّط ويشق الأنهار ويغرس ويرتّب له الماء، وإن أراد الزراعة فبأن يجمع التراب محيطا بها ويحرث ويزرع، ويعتبر في جميع مقاصد عرف الناس) [30].

هذا وإن الدعوة إلى إحياء الأرض الموات هو عين الإبداع والابتكار وذلك مما يترتب على الإحياء من منافع جمّة يتعدّى أثرها إلى عموم الأمة ويقف على رأس هذه المنافع الحرث والبذر والغراسة والزرع والذي به يتحقّق الأمن الغذائي والذي بدوره يدفع عجلة التنمية الاقتصادية التي تعمل على تخليص الأمّة من همّ التبعية للغير.

وحتى يقبل المسلم على هذا العمل برغبة وتفانٍ، ويصنعه بإبداع وإتقان، اعتبر النبي ε عمله في الأرض بمثابة صدقة جارية ما دام نفعها قائما، وفي ذلك قال رسول الله ε فيما رواه عنه أنس بن مالك:

(ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلاّ كان له به صدقة) [31].

قال الحافظ في الفتح:(وفي الحديث فضل الغرس والزرع والحضّ على عمارة الأرض) [32].

وفي مقابل ذلك أنكرت السنّة النبوية تعطيل الأرض الخصبة عن الزراعة، فإذا لم يستصلحها صاحبها ويُحْيِها بالزراعة والغرس فليتكرّم بإعارتها لمن هو قادر على ذلك.

فعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ε: (من كانت له أرض فليزرعها، فإن لم يزرعها فليمنحها أخاه) [33]. وفي رواية لمسلم "فليُزرعها أخاه" وفي أخرى عنه أيضا "فليُحرثها أخاه"[34].

فبمثل هذه الحركية النّشطة وهذا الإبداع المستمر في خدمة الأرض وعمارتها استطاعت الأمّة في الزمن الماضي أن تكون أمّة قيادة وريادة، ومحكوم علينا اليوم إذا أردنا المسارعة والسّبق، ألاّ نصادم نواميس الكون وأن نستغلّ القوانين والنظريات لاستثمار الطاقة الكامنة في هذه الأرض مراعين في ذلك عامل الزمن الذي لا يرحم، إذا أردنا أن نحوّل حاضرنا الرديء إلى مستقبل زاهر، يقول الدكتور عماد الدين الخليل: (إنّ على العقل المسلم الجديد أن يأخذ بتلابيب الطاقة التي كُشف عنها النقاب، والقوانين العلمية التي تحيل الطاقة إلى حركة وفعل وإبداع، أن يُمسك برقبة الزمن فيضيفه إلى المادة لتحقيق اللحاق بمسيرة الخصم، والسبق عليه مادامت قِيم هذا الدّين تُؤكد بإلحاح على فكرة الزمن، وعلى أنّ المؤمن الحق هو الذي يعرف كيف يسارع وكيف يسبق) [35].

ولا سبق على الخصم من غير إبداع وإتقان في كل شيء، والمسلم الحقّ هو ذاك الذي لا يقنع بالدون ولا يرضى إلاّ بمعالي الأمور، ويترفّع عن التوافه والسفاسف والقشور كما جاء في الحديث الشريف: (إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها) [36].

وفي الحديث دعوة صريحة إلى ضرورة أن نرتقي بأعمالنا وإنجازاتنا إلى مرتبة الجودة والإتقان والإبداع هذه الدعوة تتخطّى حدود الملموس والمحسوس الذي يدركه كل الناس أو معظمهم على الأقل، كما رأينا قبل قليل في أحاديث إحياء الأرض الموات، لتلامس الجوانب الفنية والأدبية.

المحور الثالث: نماذج عملية في الاحتفاء بالإبداع والمبدعين واستثمار طاقاتهم

1. في مجال تعلم اللغات

كان زيد بن ثابت ابن إحدى عشرة سنة حين قدم رسول الله ρ المدينة، وقد كان غلاما ذكيا فطنا تبدو عليه علامات النبوغ، فكيف تعامل رسول الله ρ مع قدرات زيد بن ثابت الإبداعية؟.

قال زيد بن ثابت: أُتِي بي النبي ρ مقدمه المدينة فقالوا: يا رسول الله هذا غلام بني النجار وقد قرأ مما أُنزل عليك سبع عشرة سورة، فقرأتُ على رسول الله ρ فأعجبه ذلك، قال زيد:" أمرني رسول الله ε فتعلمْتُ له كتاب يهود بالسريانية وقال: إنّي والله ما آمن يهود على كتابي، فما مرّ بي نصف شهر حتىّ تعلّمته وحذقته، فكنت أكتب له إليهم وأقرأ له كتبهم"[37] .

(ولعلّه كان على شيء من المعرفة بها من قبل لمجاورة الأنصار لليهود حتى أمْكنه أن يحذِقها في هذه المدة القصيرة، ومن هنا حرص كثير من المسلمين على معرفة اللغات فترجموا منها وإليها، ونقلت كتب العلم من الأمم الأخرى، وتنافس في ذلك المترجمون، وكافأ على ذلك الخلفاء، وقال في ذلك الشاعر:

بقدر لغاتِ المرءِ يكثُر نفعه فتلك له عند الملمّاتِ أعوان

فأقبل على درس اللّغاتِ حفظِها فكلّ لسانٍ في الحقيقةِ إنسان) [38]

2. في مجال الشعر الهادف

فهذا نبينا ε يحْتفي بالشعر وأهله، ويتخذَ منه منبرا من منابر الدعوة، وسلاحا يواجه به العدو لا يقل أهمية عن السيف والرمح وقد يتعدّاهما فتكا في بعض الأحيان، حتى لقد غدا حسان بن ثابت شاعر رسول الله ε الأول دون منازع من دون الصحابة جميعا، لا يقنع رسول الله ε إلا بشعره عند الملمّات، نظرا لما يتميز به شعره من القوة والعمق وسحر البيان، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ε قال: ("أهجوا قريشا فإنه أشدّ عليها من رشقٍ بالنبل"، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: "اهجهم" فهجاهم فلم يُرْضِ، فأرسل إلى كعب بن مالك. ثم أرسل إلى حسان بن ثابت. فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذَنَبِه، ثم أَدْلَع لسانه فجعل يحرّكه. فقال: والذي بعثك بالحق! لأفرينّهم بلساني فَرْي الأديم، فقال رسول الله ε: "لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسبا حتى يُلخّص لك نسبي" فأتاه حسان. ثم رجع فقال: يا رسول الله لقد لخّص لي نسبك، والذي بعثك بالحق! لأسُلَّنّك منهم كما تُسلُّ الشعرة من العجين، قالت عائشة: فسمعت رسول الله ε يقول لحسان: "إن روح القُدس لا يزال يؤيدك، ما نافحت عن الله ورسوله" وقالت: سمعت رسول الله ε يقول: "هجاهم حسان فشفى واشتفى".

قال حسّان:

هجوتَ محمدا فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجـزاء

هجوتَ محمدا برّا حنيفا رسول الله شيمتـه الوفـاء

فإن أبي ووالـده وعرضي لعرض محمد منكم وِقـاء

ثكِلتُ بُنيّتي إن لـم تـروها تُثير النقـع من كنَفيّ كَدَاءِ

يُبارين الأعنّـة مُصعدات على أكتافها الأسل الظِماء

تظل جيـادنا مُتمطِرات تُلطِّمهن بالخُمـر النسـاء

فإن أعرضتمو عنا اعتمرنا وكان الفتـح وانكشف الغطاء

وإلا فاصبروا لضراب يـوم يُعـزُّ الله فيـه مـن يشـاء

وقـال الله قد أرسلت عبدا يقـول الحق ليس به خفـاء

وقـال الله قد يسرّت جندا همُ الأنصـار عُرْضَتها اللقـاء

لنـا في كل يـوم من معدٍّ سبـابٌ أو قتـال أو هجـاء

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحـه وينصره سـواء

وجبريـل رسـول الله فينـا وروح القدس ليس له كِفاء)[39]

واختيار رسول الله ε لحسان في مثل هذه المواقع دون غيره على كثرة من يقول الشعر من الصحابة آنذاك، هو اعتراف بالإبداع وتشجيع له وإيمان من رسول الله ε برسالية الشعر إن رُوعي فيه المضمون، وصدق رسول الله ε عندما قال: (إن من الشعر حكمة) [40].

3. في مجال الخطابة المتميّزة

كما كان النبي ε شديد الاحتفاء بالكلمة المؤثرة إذا صدرت من خطيب مفوّه، فالخطابة موهبة وإبداع وهي سلاح مؤثر في معركة المفاهيم والأفكار، لا تقل أهمية عن بقية فنون القول الأخرى، فقد روى ابن إسحاق قال: (فلما قدم وفد بني تميم، دخلوا المسجد، ونادوا رسول الله ε أن أخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول اللهε من صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا: جئنا لنفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال: "نعم قد أذنت لخطيبكم فليقم"، فقام عطارد بن حاجب، فقال: الحمد لله الذي جعلنا ملوكا، الذي له الفضل علينا، والذي وهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددا، وأيسره عُدة، فمن مثلنا في الناس، ألسنا رؤوس الناس وأولي فضلهم، فمن فاخرنا فليعدّ مثل ما عددنا، فلو شئنا لأكثرنا من الكلام، ولكن نستحي من الإكثار لما أعطانا، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، أو أمر أفضل من أمرنا، ثم جلس، فقال رسول الله ε لثابت بن قيس بن شماس: "قم فأجبه"، فقام فقال: الحمد لله الذي السموات والأرض خلقها، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم كان من فضله أن جعلنا ملوكا، واصطفى من خير خلقه رسولا، أكرمه نسبا، وأصدقه حديثا، وأفضله حسبا، فأنزل عليه كتابا، وائتمنه على خلقه، وكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان بالله، فآمن به المهاجرون من قومه ذوي رحمه، أكرم الناس أحسابا، وأحسنهم وجوها، وخير الناس فعلا، ثم كان أولى الخلق إجابة لله حين دعاه رسول الله ε نحن، نحن أنصار الله، ووزراء رسول الله ε، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن نكث جاهدناه في الله أبدا وكان قتله علينا يسيرا، أقول هذا واستغفر الله العظيم للمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم.

ثم ذكر قيام الزبرقان وإنشاده وجواب حسان له بالأبيات المتقدمة[41]، فلما فرغ حسان من قوله قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأقوالهم أعلى من أقوالنا، ثم أجازهم رسول اللهε، فأحسن جوائزهم[42].

4. الإشادة بالمواهب الصوتية واستخدامها

وكم كان رسول الله ε يطرب للصوت الجميل الشجيّ النديّ، الذي تتزاوج فيه هبة الرحمان بلمسات الإنسان لتنتج موهبة إبداعية في الأداء الصوتي الذي يزداد جمالا ورونقا وبهاء إذا تغنّى صاحبه بالطيب من الكلام.

فعن أبي موسى قال: قال رسول الله ε لأبي موسى: (لو رأيتني وأنا أستمع إلى قراءتك البارحة لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود) [43].

لقد شُدّ النبي ε لهذه الموهبة الصوتية التي تتغنى بالقرآن، مما حدا به أن يُشيد بصوته، ويعترف بموهبته وفي ذلك تشجيع له ولغيره من أصحاب المواهب على مزيد من الإبداع والإجادة.

بل إن النداء للصلاة على قصر مدّته كان عليه الصلاة والسلام يُشجع على أن يخرج من حناجر صدّاحة ذات صوت نديّ ليكون أبلغ في الأثر وأعمق في التعبير، كما جاء في قصة بدء الأذان. فعن عبد الله بن زيد قال: (لما أصبحنا أتينا رسول الله ε فأخبرته بالرؤيا، فقال: إن هذه لرؤيا حق فقُم مع بلال فإنه أندى وأمدّ صوتا منك فألقِ عليه ما قيل لك وليُنَادِ بذلك...) (44).

وفي مجال الإنشاد والحُداء فضاء رحيب لاستثمار أصحاب المواهب الصوتية التي تتغنى بالفضائل والمكارم، وتحرّض على الشجاعة والإقدام والدفاع عن الأوطان، وتنشط العزائم وتبعث الهمم وتسلي النفوس .

ولقد النبي ε يستعين على لأواء السفر، وطول الطريق، بالصوت الجميل الذي يتغنى بالكلمات الرقيقة العذبة، التي تبعث النشاط، وتستحث الخطى، وتجدد الأنفاس .

فقد أذن لأنجشة أن يحدو بين يديه، ولعذوبة صوته خشي النبي صلى الله عليه وسلم من تأثر ذوي القلوب الرقيقة النساء، فقال له : "يا أنجَشَة روَيدَك سَوقًا بالقوارير "(45).

وأنْجَشَة كان عبدا حبشيا حسن الصوت معروفا بالحُداء والنشيد .

قال ابن بطال تعليقا على الحديث: الشعر والرجز والحداء كسائر الكلام فما كان فيه ذكر تعظيم لله ووحدانيته وقدرته وإيثار طاعته وتصغير الدنيا والاستسلام له تعالى كنحو ما أورده البخاري في هذا الباب فهو حسن مرغب فيه(46) .

ويقول القاضي عياض: فيه جواز الحداء والترنم بالأرجاز فى مواضعها؛ من سوق الإبل، وقطع الأسفار، وإنشاد الرقيق من الشعر بالأصوات الحسنة(47).

ولو لم يكن للصوت الحسن تأثير، بل ودفع وحثّ على الجدّ والاجتهاد، والحماسة في ميادين الجهاد الدعوي والقتالي .

لما تأثر بها الحيوان الذي لا يدرك إلا بالفطرة .

قال الأمير الصنعاني تعليقا على حديث أنجشة:

(والحديث دليل على جواز الحداء على نحو حداء العرب، وفيه حث للجِمَال على السير وتبسيط لها، ولذا قال الشاعر:

إن كنت تنكر أن لـ ... أنغام في الأسماع وقعا

فانظر إلى الإبل اللوا ... تي هن أغلظ منك طبعا

تصغي إلى قول الحدا ... ة وتقطع الفلوات قطعا(48)

وقد أذن النبي ε لعامر بن الأكوع أن ينشد بصوته الشجي في غزوة خيبر تحريضا للمؤمنين وتثبيتا لقلوبهم في المعركة، وقد دعا له بالرحمة .

فعن سلمة بن الأكوع، قال: خرجنا مع رسول الله ε إلى خيبر، فسرنا ليلا، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تُسمعنا من هُنيهاتك، وكان عامر رجلا شاعرا، فنزل يحدو بالقوم، يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ** ولا تصدقنا ولا صليـــنا**

فاغفر فداء لك ما اقتفينا ** وثبت الأقــدام إن لاقيــنا**

وألقين سكينة عليـــــنا ** إنا إذا صيـــــح بنا أتيـــــنا**

وبالصياح عولوا عليـــــنا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من هذا السائق؟» قالوا: عامر، قال: «يرحمه الله»، فقال رجل من القوم: وجبت يا رسول الله، لولا أمتعتنا به ... الحديث[49] .

يقول العلامة عبد الحميد ابن باديس تعليقا على حديث أنشجة – سالف الذكر – مستدلا به على أهمية الإنشاد والحداء في بعث الهمم وشحذ العزائم، وتنمية الذوق الجمالي:

(والنفوس تميل إلى الحسن وتنشرح له، وتنفر من القبيح وتنقبض عنه، ولذا كان أكثر الفن الأدبي في تصوير الحسن وعرضه على الناس ليشاركوا الفنان في إدراك ذلك الحسن والشعور به والتذوق للذة، ذلك الإدراك والشعور، وفي ذلك تربية لملكة الذوق الحسن في النفوس. وأن النفوس لفي أشد الحاجة إلى تلك الملكة لتنعم بصور هذا الكون العظيم وما فيها من حسن فتقاوم بذلك ما تعانيه من متاعب الحياة وأوصابها وتدفع بلذة ذلك الشعور بالحسن ما تجده من آلامها) [50] .

خاتمة : من أهم نتائج البحث:

1- غنى السنّة النبوية بعدد كبير من النصوص تشجع على الإبداع وتنوّه بالموهوبين.

2- تنّوع هذه التوجيهات النّبوية في دعوتها إلى مختلف أنواع الإبداع النافع، أدبيا كان أو ماديا.

3- غنى هذه النصوص بروح الحركيّة المبدعة والتجديد الهادف والاستثمار النافع.

4- رعاية النبي ε للمواهب والمبدعين وتشجيعهم واستثمار إبداعهم وتفوقهم في ما يدفع بالأمة نحو المعالي.

5- دعوة النبي ε إلى توفير الأجواء المناسبة والمناخ الملائم بالتعلم واتقان العمل واستثمار الوقت وكذا باستخدام المواهب واستغلالها والعمل على تشجيعها وتحفيزها وإكرامها ماديا ومعنويا.

الهوامش

(1)- مسلم كتاب القدر، باب بالأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، برقم 2664 (شرح النووي 382/8).

(2)- حتى يتحقق الشهود الحضاري، عمر عبيد حسنة، ط:1، 1991/1412، المكتب الإسلامي، بيروت.ص: 52.

(3)- بناء الأجيال، عبد الكريم بكار، ط:1، 2002/1423، مطابع أضواء المنتدى، الرياض.ص 81.

(4)- سبق تخريجه .

(5)- رواه ابن حبان في صحيحه كتاب (الرقاق) باب (الورع والتوكل) برقم: 731، وحسنه شعيب الأرنأوط في تعليقه عليه .انظر الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لابن بلبان الفارسي، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى: 1988/1408(510/2) .

(6)- مسلم كتاب العلم، باب من سنّ سنّة حسنة أوسيئة (شرح النووي392/8)، وكذا في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، (108/4)، من حديث جرير بن عبد الله.

(7)- رواه الترمذي في سننه في أبواب (صفة القيامة والرقائق والورع) برقم: 2417. انظر سنن الترمذي ، تحقيق: أحمد شاكر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1395ه/1975، (612/4)

(8)- رواه الحاكم في المستدركه، كتاب (الرقاق) برقم: 7846، انظر المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: 1411ه/1990 (341/4) .

(9)- الزهد أحمد بن حنبل، برقم: 1586، تحقيق، محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية بيروت، 1420ه/1999، ص: 225 .

(10)-موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق، ياسر عبد الرحمن ، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة الطبعة: الأولى، 1428 هـ - 2007 م (321/2) .
(11)- رواه الترمذي في سننه –طبعة شاكر- أبواب (الزهد) باب (المبادرة إلى العمل)(552/4) برقم: 2306 وقال:حسن غريب، وقد ضعفه الألباني في تعليقه على سنن الترمذي، لكن تجوز روايته في فضائل الأعمال.
(12)- رواه البيهقي في شعب الإيمان، برقم (5312، 5313، 5314)، (334/4)، وأبو يعلى في مسنده برقم 4386 (349/7).وقد ذكره الألباني في الصحيحة برقم 1113 (106/3) وصحيح الجامع الصغير برقم 1880 (383/1).
(13)- رواه العسكري كما ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة، في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، شمس الدين السخاوي، تعليق عبد الله محمد الصديق، ط:2، 1991/1412، مكتبة الخانجي، القاهرة.ص122-123.
(14)- البيهقي في شعب الإيمان، برقم 5315 (353/4)، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع، برقم 1891.
(15)- رواه مسلم، كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، برقم 1955 (شرح النووي 94/7)
(16)- شرح صحيح مسلم للنووي (95/7).
(17)- دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي للقرضاوي، ط:1، 2002/1412، مؤسسة الرسالة، بيروت.ص 158.
(18)- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب السلام، باب استحباب قتل الوزغ، برقم 2240 (شرح النووي (404-403/7).
(19)- دور القيم ص161.
(20)- منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ط:10، 1992/1412، دار الشروق، القاهرة.(247/2).
(21)- النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، صبحي الصالح، ط:6، 1982، دار العلم للملايين، بيروت.ص 400.
(22)- أحمد في مسنده (191/3) وقد ذكره الألباني في "الصحيحة" برقم 09 (38/1) وقال: صحيح على شرط مسلم.
(23)- حول تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، ط:1، 1989/1410، مطبعة الفيصل، الكويت.ص: 110.
(24)- السنة مصدرا للمعرفة والحضارة، يوسف القرضاوي، ط:1، 1997/1417، دار الشروق القاهرة.ص: 248.
(25)- سورة هود: 61.
(26)- الجامع لأحكام القرآن أبو عبد الله القرطبي، ط:1985/1405، دار إحياء التراث العربي، بيروت. (56/10).
(27)- البخاري، كتاب المزارعة، باب من أحيا أرضا مواتا، برقم 2335 (الفتح 18/5).
(28)- أبو داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب إحياء الموات، برقم 3073 (178/3). والترمذي (طبعة شاكر)، كتاب الأحكام، باب ما ذكر في إحياء أرض الموات، 1379 (664/3). وقد ذكره الألباني في "الصحيحة" برقم 568 (111/2)، كما صحّحه أحمد شاكر وبسط القول فيه ونسب القول بتصحيحه إلى الضياء المقدسي في "المختارة" وتحسينه إلى ابن حجر في الإصابة. انظر تعليقات أحمد شاكر على كتاب الخراج ليحي بن آدم، ص: (82-80).
(29)- أحمد في مسنده (372/3)، والدارمي في سننه كتاب البيوع، باب من أحيا أرضا مواتا فهي له (267/2). والعافية واحد العوافي، والعوافي الطالب للحاجة، وجمعه عوافي وعفاة، قال الأعشى:
يطــوف العفاة بأبوابـه كطوف النصارى ببيت الوثن. انظر الاستذكار لابن عبد البر تعليق سالم محمد عطا، محمد علي معوض، ط:2، 2002/1422، دار الكتب العلمية، بيروت. (229/8).
(30)- شرح السنّة، أبو محمد الحسين البغوي، تحقيق علي محمد عوض، عادل أحمد عبد الموجود، ط:1، 1992/1412، دار الكتب العلمية، بيروت.(405/4).
(31)- البخاري كتاب الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، برقم 2320 (الفتح 3/5)، ومسلم كتاب المساقاة باب فضل الغرس والزرع، برقم 1553 (شرح النووي 379/5).
(32)-فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة بيروت. (4/5).
(33)- البخاري كتاب الحرث والمزارعة، باب ما كان من أصحاب النبي ε يواسي بعضهم بعضا في الزراعة والثمر، برقم 2340 (22/5)، ومسلم –واللفظ له- كتاب البيوع باب كراء الأرض، برقم 1536 (شرح النووي 365/5)، وقد رواياه أيضا من حديث أبي هريرة.
(34)- مسلم في نفس الكتاب والباب (شرح النووي 364/5).
(35)- حول تشكيل العقل المسلم، ص: 149.

(36)- ذكره الألباني في "الصحيحة"، ونسب روايته إلى الطبراني وابن عدي والقُضاعي من طريق خالد بن إلياس عن محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان عن فاطمة بنت الحسين عن حسين بن علي مرفوعا. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، برقم 1627 (168/4).

(37)- أخرجه البخاري معلقا بصيغة الجزم في كتاب الأحكام باب ترجمة الحكّام وهل يجوز ترجمان واحد(2631/6)وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن البخاري قد وصله مطولا في "كتاب التاريخ" وذكر من أخرجه من أصحاب السنن كأبي داود والترمذي هذا الأخير الذي قال عن الحديث بأنه: حسن صحيح، ثم عمل الحافظ على نفي شبهة التفرّد عن هذا الحديث بذكر مُتابع له وخَلُص بذلك إلى صحّة الحديث كما جزم بتعليقه البخاري (انظر الفتح دار المعرفة بيروت 186/13-187). وقد ذكره الألباني في "صحيحته" وأشار إلى اختلاف طرقه وألفاظه. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ط: 1995/1415، مكتبة معارف الرياض. (364/1-365).

(38)- السنّة مصدرا للمعرفة. ص: 183-184.

(39)- رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت (شرح النووي 233/8). كما رواه البخاري من حديث البراء بن عازب في كتاب بدء الخلق، وكتاب المغازي، وكتاب الأدب بلفظ (أهجهم أو هاجهم وجبريل معك).

(40)- البخاري، من حديث أبي بن كعب، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه، انظر: (الفتح 537/10).

(41)- يشير إلى أبيات كان قد قالها حسان بن ثابت على البديهة بطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم للرد على الزبرقان شاعر بني تميم وكان مطلع هذه الأبيات:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم — قد بينوا سنة للنـــاس تتبـع
يرضى بها كل من كانت سريرته — تقوى الإله وكل الخير مصطنـع

إلى أن قال:

أكرم بقـوم رسـول الله شيعتهم — إذا تفاوتت الأهـواء والشيع
أهدي لهم مدحتي قلب يوازره — فيمـا أحب لسـان حائك صنع
فإنهم أفضل الأحيـاء كلهم — إن جد بالناس جِدّ القول أو شمعوا

(42)- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تخريج محمد ناصر الدين الألباني، ط:1، 2004/1425، دار الإمام مالك، الجزائر. (273/1)، وقد ذكر ابن حجر بأن رواية ابن إسحاق منقطعة، وأخرجها ابن منده في ترجمة ثابت بن قيس في "المعرفة" من طريق أخرى موصولة (انظر الفتح 593/8).

(43)- البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، برقم 5048 (الفتح 92/9)، ومسلم – واللفظ له- كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، (شرح النووي 270/3).

(44)- الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء في بدء الأذان، برقم 189 (358/1 طبعة شاكر) وقال الترمذي: حسن صحيح، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب كيف الأذان، برقم 499 (135/1)، وابن ماجه، كتاب الأذان والسنة فيها، باب بدء الأذان، برقم 706 (232/1)، والدارمي، كتاب الصلاة، باب في بدء الأذان (268/1-269).

(45)-البخاري في صحيحه كتاب (الأدب) باب (المعاريض مندوحة عن الكذب) (2294/5) برقم: 5857، ومسلم في صحيحه كتاب (الفضائل) باب (باب في رحمة النبي صلى الله عليه وسلم للنساء وأمر السواق مطاياهن بالرفق بهن) (1811/4) برقم: 2323

قال المازري: "سوقكَ بالقوارير" شَبَّهَهنّ بها لضعف عزائمهن والقوارير يسرع إليها الكَسر، وكان أنجَشَة يحَدو بِهِنّ وينشد من القريض والرّجز ما فيه تَشبيب فلم يأمن أن يَفتِنَهَنَّ أو يقعَ بِقلوبِهِنّ حدَاؤه فَأَمَرَه بالكَف عن ذلك. انظر: المُعْلم بفوائد مسلم، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن علي المازري المالكي ، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر، المؤسّسة الوطنية للكتاب بالجزائر، الطبعة: الثانية، 1988 م، والجزء الثالث صدر بتاريخ 1991م. (221/3) .

(46)-شرح صحيح البخارى ، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك ، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد – الرياض-الطبعة: الثانية، 1423هـ - 2003م، (319/9) .

(47)-إِكمَالُ المُعْلِم بفَوَائِدِ مُسْلِم، القاضي عياض اليحصبي السبتي ، المحقق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء للطباعةِ والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م، (288/7).

(48)-التَّحبير لإيضَاح مَعَاني التّيسير، محمد بن إسماعيل المعروف بالأمير الصنعاني، تحقيق: محَمَّد صُبْحي أبو مصعب، مَكتَبَةُ الرُّشد، الرياض الطبعة: الأولى، 1433 هـ - 2012 م، (804/4) .

(49)-البخاري في صحيحه كتاب (المغازي) باب (غزوة خيبر) (1537/4) برقم: 3960 ومسلم في صحيحه، كتاب (الجهاد والسير) باب (غزوة خيبر) (1427/3) برقم: 1802 .

(50)-مجالس التذكير من حديث البشير النذير، عبد الحميد بن باديس الصنهاجي، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية الجزائر، الطبعة: الأولى، 1403هـ - 1983م، ص: 274 .